الجمال والجميل ..

بقلم عدنان بن ذريل

كانت دراسة الجمال اعتبارات تأملية ، مذهبية ، في الوجود ، او السلوك ، او الفن .. فمنذ أفلاطون حتى بومجارتن ، ظلت مباحث الجمال دراسات تأملية ، وفنية . والعرب أنفسهم درسوا الجمال في اتجاه تأملي ، وفني ، ولحدوا فيه لحودات أصيلة ، تمزج الواقع ، بالحدس العقلي ، والصوفي ..

وقد عمل « بومجارتن » على استقلال هذا العلم ، الذي رآه علم الحساسية ، وهي المقصودة من لفظة ـ استطيقا ـ ، التي أطلقها عليه ، تأكيدا لموضوعه ، ومجالات بحثه ، اي الجزء الاسفل ، من الحياة النفسية ، مجال المعرفة الدنيا ، للافكار غير الواضحة ، في مقابل المنطق ، الذي يعنى بالافكار الواضحة ، ظواهرها وقوانينها.

والجمال عند « بومجارتن » ، توافق بين نظامنا الداخلي ، ونظام الاشياء ، التي نفتكرها جميلة ، اي ان دراسة الجمال عنده دراسة نفسية ، عقلية ، ظلت تصطبغ بالصبغة المثالية ، ومع ذلك لجأ بومجارتن الى دراسة تطبيقية ، عملية على الفن ، فدرس الابداع الشعري (١) ، دون غيره من الابداعات الفنية ، دراسة تقريرية ، معيارية على السواء ...

وقد تعاورت البحث الجمالي ، في اثره ، الاعتبارات الجمالية المتميزة ، والمختلفة ، من نفسية ، واجتماعية ، واسلوبية ، بعد ان كان البحث الجمالي يخضع للاعتبارات المذهبية ، من مثالية ، او واقعية ، او صوفية . وكان من نتيجة ذلك ازدهار هذا العلم الحديث ازدهارا كبيرا ، من ابرز ثمرات البحث فيه التحليلات الجمالية ، العلمية للجميل ، كمقولة جمالية ، تخضع كغيرها من « المقولات الجمالية » ، للتأثيرات الجمالية المتميزة ، والمختلفة ..

وسنعرض هنا آراء ثلاثة رواد في علم الجمال الحديث ، هم على التتالي : ايمانويل كانت ، وشارل لالو ، وريمون باييه ، ونقف على تحليلاتهم المتباينة للجمال ، والجميل .

أخضع « كانت » الجمال للتحليل النقدي ، ودرسه في مبحث الحكم الجمالي ، والذوق ، من وجهة نظر المقولات المنطقية ، التي تحدد ترابط الافكار في الانسان ، في حين يرجعه « لالو » الى التناسق ، تحقيقه ، او التماسه ، او فقدانه ، ويربطه بالملكات النفسية ، العاملة فيه ، ويرجعه « باييه » الى حدس القدرة ، والانتصار ، ويربطه بالفعالية الخالقة ، ونجاحاتها في الانجاز نفسه..

***

« الشعور الجمالي » عند كانت ، هو في « الانسجام » بين الفكر ، والمخيلة ، وذلك بفضل عمل المخيلة ، في حرية .. والعبقرية نفسها تكمن في المزج الفريد بينهما (٢) ..

ولما كان هذا الانسجام ، وهو انسجام ذاتي ، مستقلا عن المضمون التجريبي ، بل عن الامكان الفردي ، فان الشعور بالجمال يوجد وجودا أوليا ، ويكون كمقوم ضروري ، سليم ، للاحكام الجمالية ..

هذا الانسجام وحده ، يستطيع ان يكسب الغائية مسحة غير هادفة ، بحيث تكون غائية بدون غاية ، يؤدي تحقيقها الى توليد الشعور بالجميل ..

وعلى ذلك توجد صورتان للجمال :

١ ـ « الجمال الخالص » ، او الحر من اي نفع ، مثل الطبيعة المصورة ، او الزهور ، او « الطراز العربي » في الزخرفة ، حيث انسجام الفكر ، والحواس ، بغير أي هدف اخر ..

٢ ـ « الجمال الانساني » السامي ، وهو «المرتبط» بالتصور ..

واللذة الجمالية تنشأ من الجميل نفسه ، فكل جميل يسبب لذة ، الا انها لا تشبه اللذات الاخرى ، بل تختلف عنها في الطبيعة ، والدرجة . اللذة هنا في التطابق ، والانسجام بين الخيال ، والفكر ، وهما في العادة مفترقان ، متباعدان .. وهذا التطابق « شعور جمالي » ، وهو ليس حسيا فقط ، بل هو ايضا عقلي..

ومن حيث ان اللقاء بين الفكر ، والخيال ، وتطابقهما ، وانسجام احدهما مع الاخر ، متطلبات شعورية ، وان المعرفة عامة ، وضرورية .. فاللذة التي تنشأ عن ذلك موزعة توزيعا عاما بين الجميع . وان ما نسميه جميلا نقدره كلنا ، بل يجب ان يراه الجميع جميلا ..

و « الحكم الجمالي » ، او حكم الذوق ، عمل فكري .. وهو ايضا حالة للروح يوجدها « الانسجام » بين الملكات الانسانية .. انه لذة ، وعمومية ، له حضور العاطفة ، ويبرهن عليه نقد العقل . انه تركيبة قبلية ، وله مبادئه التي تظل في الحساسية ، والخيال . ولكن بما انه شعور حر ، بنشاط ملكاتنا في المعرفة ، فهو نفسه « معرفة » ، وبالتالي ، هو موزع توزيعا عاما بين الجميع ..

---

(١) ـ قسم الفيلسوف الالماني الكسندر بومجارتن (١٧١٤ ـ ١٧٦٢) دراساته في الاستطيقا قسمين ، سمى القسم الاول منهما ، الاستطيقا النظرية ، وهي البحث النفسي العقلي في الحساسية ، والاخر الاستطيقا العملية ، درس فيها الابداع الشعري ، كنموذج للابداع الفني . وقد اصدر بومجارتن عام ١٧٣٥ ـ تأملات ـ و ـ محب الحقيقة ـ ، وهما تأملات في الشعر ، وفنيته . وعام ١٧٥٠ اصدر القسم الاول من الاستطيقا ، ثم عام ١٧٥٨ القسم الثاني ، والذي ظل مجزأ ..

(٢) درس كانت الشعور الجمالي ، والحكم الجمالي ، والذوق ، والجمال ، والفن ، في مبحث ـ نقد الحكم ـ الذي افرد له مؤلفا خاصا . فدراسته للجمال اذن ، نفسية ، عقلية ، نقدية .. تراجع الترجمة الفرنسية ، جيبلان ، لنقد الحكم ، باريز ، ١٩٥١ ..

وعندما عرض « كانت » حكم الذوق على التحليل النقدي ، من زوايا ، او اعتبارات ، او لحظات المقولات ، التي للفكر .. وجد انه :

من حيث « الكيف » : الجمال موضوع الارتياح ، المميز لحكم الذوق ، المنزه عن اي غرض .. ان التمتع بالجمال لا يهتم بموضوعه ، على نقيض اللذة الحسية ، او التمتع الاخلاقي ، واللذين يتطلبان ، احداهما التملك، والاخر التحقق ..

ومن حيث « الكم » : الجمال ما يرضي بصورة شاملة ، وبغير مفهوم . او هو ما يجلب اللذة بوجه كلي، وبغير تصور . اي هو قيمة توفق عليها من جميع اصحاب الذوق ..

ومن حيث « الاضافة » : الجمال صورة الغائية ، لموضوع ، من حيث تدرك الغائية ، بغير تمثل غاية . اي في الجميل لا ينظر الى وظيفته ، خاصة النفعية ، ولكن قيمته الجمالية من حيث هي ، والحكم على ذلك أكمل ما يمكن من اتفاق في جميع الازمان، وعند جميع الناس.

ومن حيث « الجهة » : الجميل ما يعترف به موضوعا لرضا عمومي ، ضروري، وبغير تصور . او هو أمر جمالي ذاتي ، لكونه متطلبا من متطلبات شعورنا الجمالي نفسه .. فهنا الحكم فيه ضرورة ، وقبلية ، ولكن ليس ضرورة تجريبية ، او رياضية ، بل شخصية، وذاتية ..

وليس تخفى المسحة العقلية ، والقبلية في هذا التحليل العقلي ، والنفسي ، للشعور الجمالي ، والجميل .. الامر الذي قرب هذا التحليل من «المثالية» الحديثة ، ومن نظرية « الفن للفن » ..

***

والعالم الجمالي « شارل لالو » يحلل الجميل ، وسائر المقولات الجمالية الاخرى ، ابتداء من القانون ذي المسحة الاقتصادية ، في حياة الفكر ، وهو : رد التنوع الى الوحدة .. فيلاحظ ان الفكر في الميدان الجمالي ، وعملياته المركبة ، المتعددة الاصوات ، هو مثله في الميدان العلمي الذي للوقائع ، او الميدان الاخلاقي الذي للعمل ، يتجه الى رد التنوع الى الوحدة ، منظما بذلك نشاطات القوى الانسانية (٣) ..

وقد طبق « لالو » هذا القانون التنظيمي ، على درجات مختلفة ثلاث ، هي تحقيق الانسجام ، والتماسه، وفقدانه ، على ملكات الانسان الرئيسية : العقل ، والفعالية، والحساسية .. فتعين لديه بذلك تسع مقولات جمالية، يقول لالو ، انها تسعة وجوه للقانون التنظيمي ، للقوى الفكرية في الانسان ..

« العقل » في عمله الجمالي ادراك للعلاقات المحسوسة . و « الفعالية » ايحاء لارادة حرة ، او ايحاء حتمية . و « الحساسية » انطباع لذيذ ، لنمو الحيوية الفردية ، او الجماعية .. مع الملاحظة ، ان ميلنا الى تأنيس الاشياء ، او استحيائها ، يعزو بطريقة رمزية، وتشبيهية للمخلوقات الدنيا ، او الاشياء غير الحية ما لنا من ملكات ، فتفكر مثلنا ، وتعمل ، وتحس ، وتنفعل ..

واذن « التناسق » عندما يكون متحققا ، بالنسبة للكاته الثلاث ، يعطينا « الجميل » ، في تحققه في المجال العقلي ، و « الفخم » في تحققه في المجال الفاعلي ، و « اللطيف » في تحققه في المجال الانفعالي (٤) ..

في حين « التناسق » عندما يكون مفقودا ، بالنسبة لملكاتنا الثلاث ، يعطينا « الظريف » في فقدانه في المجال العقلي ، و « المضحك » في فقدانه في المجال الفاعلي ، و « التهكمي » في فقدانه في المجال الانفعالي..

بينما « التناسق » عندما يكون ملتمسا ، بالنسبة لملكاتنا الثلاث ، يعطينا « الرائع » في التماسه في المجال العقلي ، و « المؤثر » في التماسه في المجال الفاعلي ، و « المفجع » في التماسه في المجال الانفعالي ..

« الجمال » في هذا التحليل الجمالي ، النفسي ، الواقعي ، اذن ، هو في الانسجام ، وتحققه . ويقوم على واقع نسبه ، ورتبه ، بقدر ما هو في واقع عناصره ، ومقوماته ..

الاعتبار هنا اذن للتناسق ، نسبه ، وقيمته من تحقق ، او التماس ، او فقدان . كما انه كذلك للعناصر التي وراء هذه النسب ، وحدتها ، واتجاهها ، من عواطف ، وأفكار ، وتصورات ، ومواقف ، وصراع ..

فمثلا ، المقولات التي نجدها في المجال التشكيلي اكثر من سواها ، هي الجميل ، والفخم ، واللطيف ، والرائع . بينما نجد مقولات المؤثر ، والمفجع ، والمضحك، والتهكمي ، اكثر ما يكون في الفن المسرحي ، او القصصي (٥) ..

« الجميل » تناسق يدركه العقل ، ويقدره الذوق. وهو موضوع ارتياح من نظام فكري . انه موضوع تأمل صاف ، اكثر منه موضوع شعور للحياة الانفعالية ، او موضوع عمل للارادة . انه راحة ، وبساطة ، لا قلق فيه ، ولا مزيد جهد .. ومثال ذلك ان الهيكل اليوناني جميل ..

و « الفخم » تناسق جليل ، مهيب ، يفترض تغلبا ميسورا على مقاومة مادية ، مع ايحاء للفعالية ، والنشاط بالضخامة ، الى جانب العقل بالتناسق ، ومثال عليه ان القصر المصري فخم ..

و « اللطيف » هو الانيق الصغير . انه تناسق متحقق يداعب حياتنا الانفعالية ، ويوحي بتعاطف بيننا وبين الاشياء الصغيرة ، او الاشخاص الضعيفة ، كما يوحي بتضامن اجتماعي ، وكوني ، في صالحنا ، ومثال عليه ان المنتزه لطيف .. وعرفه « باييه » بأنه رمز متفائل عن السلطة ، والقدرة ، او هو الرقة تخلد لحظة الجهد الاقل ..

و « الرائع » هو حسب بسكال دوار ذهني ناتج عن ادراك اللانهايتين ، وهو اذن صراع ، او التماس

---

(٣) ـ راجع في ذلك بخاصة : ـ مبادىء علم الجمال ـ لشارل لالو ، ترجمة خليل عزيز شطا ، مراجعة وتقديم عدنان بن ذريل، دمشق ، ١٩٥١ ، ص : ٨٠ ـ ٩٢ .

(٤) ـ لائحة «المقولات الجمالية التسع» ، التي وضعها شارل لالو

القدرات	التناسق		
	متحققا	ملتمسا	مفقودا
العقل	جميل	رائع	ظريف
النشاط	فخم	مؤثر	مضحك
الحساسية	لطيف	مفجع	تهكمي

(٥) ـ يراجع في كتابنا : ـ فن المسرحية ، مع تلخيص حديث لكتابات الشعر لارسطاليس ـ دمشق ، ١٩٦٣ ، فصل « المفجع ، والمضحك » ، ص ٩٦ ـ ١٠٨ .

افكار يحتاج الى بت الامر فيه ، او هو احجية تحتاج الى حل من فوق ، خارجا عنا ، وعن الطبيعة ، ومثال عليه ان الكاتدرائية الغوطية ترقى الى الرائع ..

ولا شك ان هذه التخيلات تمتاز بواقعيتها وتشبعها بالتجربة الجمالية ، والموضوع الجمالي ، اللذين يعايشانها بعيدا عن أية مثالية ، او مبادىء عقلية ..

***

« الفن » في نظر « بابيه » أثر للفعالية ، او الارادة الفنية ، في التغلب على مقاومة في العمل الفني ، او الانتصار على الصعاب فيه . والقيمة الجمالية تخلق بالضرورة من « نجاح » هذه الارادة الفنية العاملة ، او فشلها ، في انجازاتها المختلفة (٦) ..

والحقائق التي تنتظم عالم الجمال ، وتنظمه .. هي النتائج المختلفة ، القدرة الموضوعة في العمل الفني ، او الموضوع ، ومدى تحقيقها النجاح فيه . ولما كان « الانفعال الجمالي » جزءا من ظواهر مركبة ، وواضحة ، هي ظواهر الانتصار .. كانت « مسألة الجمال » ومقولاته ، مسألة واحدة ، هي انفعال نظام واحد ، هو الانفعال الجمالي ، والذي يتأتى نتيجة حدس وحيد للقدرة ..

ومن هنا هذه الانماط النموذجية من « الشعور الجمالي » ، ألا وهي المقولات الجمالية ، التي تنبع من الموضوع نفسه ، ومظاهره نفسها . انها ، اي المقولات الجمالية ، مسحة النجاح الفني ، التقني في الموضوع ، رنته ، ونبرته .

بالفعل يستعمل « بابيه » مصطلح الجمال في معنيين ، معنى واسع ، شامل ، يقصد الجمال فيه كل قيمة جمالية ، ولذلك هو يشمل عنده المقولات الجمالية كافة . ومعنى ضيق ، الجمال فيه توازن بين الرائع ، واللطيف ، وهما القطبان في الشعور الجمالي ، او المقولتان الام ، على حد تعبيره (٧) ..

ويحلل « بابيه » في دراسته للجميل المقولتين الكبيرتين ، الرائع ، واللطيف . ثم يضيف اليهما الجميل ، وضده القبيح ، والباروك ، والمضحك . وبذلك تكون مقولات الجميل عند « بابيه » خمسا : الرائع ، واللطيف ، والجميل ، والباروك ، والمضحك (٨) ..

« الرائع » حدس للقدرة ، تهيمن عليه اخفاقات متلاحقة ، هي منتظرة ، متوقعة ، او بديهية . او تهيمن عليه محاولة للتسوية ، حيث المقصود اقامة منظور جديد ، او المقصود ايضا نجاح للمستحيل ، او نجاح مستحيل ، ان صح التعبير ..

هنا عدم المنظم يجد تنظيمه ، وبالتالي معجزته . ومن هنا طعم الرائع المركب ، الذي كثيرا ما عده علم النفس شعورا مزيجا . انه على كل حال « نجاح » . او هو نجاح أخير بعد سلسلة من الضيق ، والالم ..

(٦) ـ يراجع لريمون بابيه : ـ علم الجمال ـ باريز ، ١٩٥٦ ، و ـ في المنهج في علم الجمال ـ باريز ، ١٩٥٣ .

(٧) ـ يراجع في ـ علم الجمال ـ لبابيه ، باريز ١٩٥٦ ، فصل « الحقيقة الجمالية : المقولات » ، ص ٢٢٣ ـ ٢٣١ .

(٨) ـ فتكون لائحة المقولات الجمالية عند بابيه على النحو التالي:
الجميل (بالمعنى الواسع)
الرائع ، اللطيف ، الجميل ، الباروك ، المضحك ..

رده بعض الدارسين الى التعجب ، او الفزع ، او احتمال الخطر .. الا انه ظفر ، وتوازن ، ونجاح ..

و « اللطيف » نقيض الجهد ، ومع ذلك هو غنوة القدرة ، وبينه وبين الرائع توازن في البنية . « الرائع » يتجه نحو القيم التي يحملها الفن ، وما فيه من مضمون ، جهد ، طاقة ، نضال . و « اللطيف » يتجه نحو الشكل ، نحو التقنية .. انه رمز متفائل للقدرة ، والرقة تخلد لحظة الجهد الاقل ..

وقد حاول الكثيرون تعريف « اللطيف » ابتداء من الحركة ، ورده سبنسر ، وفيرون الى اقتصاد في القوى ، وسهولة دون ما جهد .. ولكن في الحقيقة ، في « اللطيف » لين ، مثلما فيه شدة ، وفيه اقتصاد ، مثلما فيه بعثرة للقوى .. انه ادخار ولكنه ايضا ليونة .. انه ، بلغة ذاتية توازن للموضوع ، توازن للشيء ..

و « الجميل » بالمعنى الضيق ، او الجميل كمقولة ، هو التوازن الموجود بين بنيتي « الرائع » و « اللطيف » ، بين القيم ، ومضمونها من الانسانية . وها هنا هدف « الجميل » ، انه يتجه في آثاره فينا الى غائية للكامل .. ولذلك يرى « بابيه » ان معظم موضوعات « الجميل » بالمعنى الواسع ، ليست الا تضميخ الجميل الفوقاني ، بالجميل كمقولة ، وترشحه فيه ..

وثمة تحت كل مقولة جمالية ثبات للبنيات ، والمظاهر ، والموضوع الجمالي المتميز عن الموضوع المحسوس ، هو موضوع مبني ، مركب . انه مزيج من المظاهر ، اي القدرات ، انه نقطة بدء عالم الجمال .. في حين ان الظاهرة ، التي هي بمثابة محور الحلقة ، في هذه المقولات ، هي ظاهرة القدرة ، وهي قدرة بين المعايير ..

دمشق — **عدنان بن ذريل**

في المكتبات

انا وسارتر والحياة

بقلم سيمون دوبوفوار

ترجمة عايدة مطرجي ادريس

في هذا الكتاب الرائع تروي لنا الكاتبة الوجودية الكبيرة قصتها مع الرجل الذي كان شريك حياتها ، من غير ان يكون زوجها ، جان بول سارتر . وهي من خلال ذلك تقص تلك المغامرة التي ادت الى انتصارها : كيف اصبحت كاتبة الى جانبه . وكيف كانا وما يزالان يواجهان الحياة .

قصة رائعة ، عميقة ، نابضة بالحياة

منشورات دار الاداب ـ بيروت

الثمن اربع ليرات لبنانية او ما يعادلها